الفصل الخامس

المجادلون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة غافر – الآية ٥٦].

(١)

جاءه عبد الكعبة وآثار رحلة الشام التى عاد منها بادية على وجهه، مغبرة لثيابه، فهو لم يذهب إلى داره، بل حضر إلى دار صديقه ورفيق صباه، بعد أن سمع ما سمع من الذين كانوا فى استقبال القافلة، وما إن لقيه حتى سأله فى قلق:

– أحقا ما تقوله قريش، من تركك لدين الأجداد، ودعوتك لهجر عبادة الأوثان، وعبادة الله الواحد؟.

فقال محمد ﷺ فى هدوء العارفين:

– إى وربى، وإنى لأدعوك لأن تهجر الرجز، وتشهد بأن لا إله إلا الله.

قال عبد الكعبة دون تردد أو قلقلة:

– بأبى أنت وأمى، فأهل الصدق أنت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك لرسول الله.

قال رسول الله ﷺ:

– ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له فيه كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبى بكر بن قحافة، ما عكم عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه.

جلس عبد الكعبة بين يدى النبى ﷺ فأسمعه ما كان من أمر الوحى، ثم أسمعه ما أنزل عليه من كلام الله، وهو منصت كل الإنصات، مصغ غاية الإصغاء؛ ولما انتهى النبى ﷺ من حديثه، أخبره عبد الكعبة بالرؤيا التى رأى وهو بالشام، وشرحت قلبه للإسلام:

لقد رأى أن القمر نزل بدور مكة، ثم دخلها دارا دارا، ثم استقر فى حجره، وحين قص رؤياه على أحد الكهان ممن يشتغلون بقراءة الطالع وتفسير الأحلام، قال له: إنه سيخرج من دور مكة نبى سيتبعه، وسيكون على ملته.

ولما وصل إلى الديار، سأل:

– هل من جديد ظهر؟.

فقالوا له:

– إن صديقك محمدا قد صبأ.

قال له محمد:

– هل تريد أن تسمع خبر السماء فيما يقولون؟.

قال عبد الكعبة:

– زدنى.

قرأ نبى الله ﷺ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

[سورة التكوير – الآيات ١٥: ٢٩].

آمن «عبد الكعبة» والدمع ينساب مدرارا، على وجهه ولحيته فيغسل كل آثار الإرهاق، وما علق بهما من وعثاء السفر:

– صدقت وصدق من أرسلك بالحق، والله يا محمد إنك ما جئت للناس إلا بالخير، وإن قريشا لفى ضلال عظيم، وأحمد الله أن شاء لى أن أستقيم.

وتبدى جبريل للنبى ﷺ يقرئه السلام، وأنبأه بأن اسم «عبد الكعبة»، بعد أن دخل الإسلام هو: أبو بكر، فلا عبودية إلا لله وحده.

وأبلغ النبى صديقه بالأمر، فامتلأ الصديق بالبشر: فأى شرف هذا الذى أفيض عليه من السماء.

وخر أبو بكر ساجدا لله وأناب.

أثلج دخول عبد الكعبة فى دين الله صدر النبى، فهو أول مصدق برسالته يفد عليه من خارج داره، فلقد عانى كثيرا من القرشيين، فهم لم يكتفوا بالرفض بل أخذوا يلاحقونه بسخافاتهم، وحتى جاره عقبة بن أبى معيط، وأقرب الناس إليه وعمه عبد العزى بن عبد المطلب وزوجه أم جميل، لم يسلم من أذاهم: فعقبة يترصده بالصفير كلما سمعه يرتل القرآن، ويضع فى طريقه الشوك والقاذورات، وقد رفض أن يستمع إليه حين دعاه للإسلام، وأشاح برأسه ساخرا؛ أما عمه فيلاحقه فى كل مكان يذهب إليه بالسخرية من كلامه، والاستهزاء بدعوته، والتشكيك فيها وفيه، ليصرف عن الاستجابة له من يميل قلبه لحديثه، خوفا من تحرش عبد العزى وبطشه، بينما امرأته تفعل مثلما يفعل عقبة فترمى الأوساخ أمام باب داره.

وإن هذا التصرف ليكبر عند النبى، ليس حزنا، ولا غضبا مما يناله من إيذاء، ولكن لغرابته لما عرف عن العرب من حسن رعاية الجار، وتقديسًا لصلة القربى.

ويـا له من تناقض ذاك الذى يحدث مـن الأعمام: عمه عبد العزى، وعمه أبى طالب: ذاك يبغضه كل البغض، وهذا يحنو عليه حنو الراعى على غنيماته، ويحيطه بالحب: فأبو طالب، وإن لم يدخل فى دين الإسـلام كما دخل ابنه على، إلا أنه لم يقاتل محمدا فيه، ولم يرغم عليا على تركه، بل إنه حين رأى عليا يصلى معه، قال لابنه:

– اتبعه فإنه لا يبغى بك إلا خيرا.

فنعم الكفيل، ونعم القريب أنت يا أبا طالب..

٢

كان المنتظر مع دخول أبى بكر فى دين الله، مصدقا بمحمد، وبما نزل عليه، وهو من أشـهر تجـار قريـش، بل هـو لقريش وزير خزانتها، يأتمنونه على أموالهم وذهبهـم وتجارتهم، ويحفظون فى داره كل غال ونفيس؛ أن قريشـا وسادتها سـيتدبرون الأمر، وقد يكون فى تدبرهم ما يجعلهـم يعدلـون عن تعنتهم وكبرهـم، والافتراء على محمد ﷺ، بمـا يتقولون به فى مجالسهم، فتارة يقولون: إنه مجنون، وتارة أخرى يقولون: إنه شاعر.

لكن ما حدث كان مغايرا لكل توقع، فلقد زادهم دخول أبى بكر فى دين الله كراهية للنبى، بل لقد زادوا من إيذائهم لمحمد، لأن أبا بكر سرعان ما عاد إلى النبى، ومعه عثمان بن عفان، ثم ومعه من هم غير عثمان من سادات قريش وكبرائها ممن شـرح الله قلوبهم للإيمـان، وهو ما زاد من إحساس القرشيين بخطورة دعوة محمد، واختراقها لصفوفهم، فازدادوا تعنتا وتطاولا على النبى وتكذيبا لرسالته، وقولهم بأنه لم يوح إليه، إنما هو غوى.

ورد عليهم رب العالمين ادعاءهم، فنزل جبريل عليه السلام بقول الله تعالى، مقسما، ومبينا، ولائما، للمدعين على نبيه بما هو ليس فيه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾ [سورة النجم – الآيات ١: ١٢].

ولقـد عاتبهم ربهم فـى عدم تصديقهم لمحمد، وهم من أسموه: الصـادق الأمين، وهو ليس بغريب عنهـم، فقـد لبث فيهـم عمرا، فما جربوا عليه كذبـا ولا كهانة، ولا سمعوا منه شـعرا، ولا رأوا منه تصرفا يدل على اختـلال فى العقل، فلماذا يعجبون أن محمدا يوحى إليه من عند الله القادر، فقال فى سورة يونس: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [سورة يونس – الآيات ١: ٢].

ثم إنهم بعدم تصديقهم برسالته، وادعائهم عليه بما هو ليس فيه: يجحدون بنعم الله عليهم؛ ونزل جبريل على محمد ﷺ يوضح له هذا جميعه، ويحثه على أن يزجرهم، ويفتح عيونهم على هجرهم لنعم الله التى أنعمها عليهم، وآخرها أنه أكرمهم بأن جعل منهم رسوله الخاتم، ونزل القرآن بلغتهم يخاطبهم فى إعجاز لغوى، وهم أهل الفصاحة، ويثبت لهم مدى قدرة الله تعالى، أمام ما يعتقدون بقدرتهم عليه، ويتحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة البقرة – الآية ٢٣].

ثم يؤكد العليم القدير أنهم لن يستطيعوا، فى سورة الإسراء: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة الإسراء – الآية ٨٨].

قبل المشركون التحدى، وراح شعراؤهم وفصحاؤهم، يحاولون محاكاة القرآن؛ وباءت محاولاتهم بالسخرية، والامتعاض، حتى من الذين شجعوهم على المحاولة، وتحقق قول رب العالمين.

ولكن، هل للأعمى أن يرى كساح رجليه؟!.

وهل للأصم أن يسمع نكران صوته؟!.

فها هم أولاء أمام فشلهم المذرى والذى فضحه القرآن، قد لجوا فى عتو ونفور يجادلون بالباطل فقالوا:

– أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون، لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين؟!

قال جبريل لمحمد ﷺ اسألهم:

– لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟.

قالوا:

– لله.

قال النبى:

– أفلا تذكرون؟.

ثم استطرد:

– من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؟.

قالوا:

– الله.

قال:

– أفلا تتقون؟!.

– الله.

وقرأ عليهم رسول الله ﷺ من سورة المؤمنون: ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

[سورة المؤمنون – الآيات ٨٩: ٩٢].

بهت المشركون، ولم يجدوا أمامهم من سبيل إلا فى السعى إلى أبى طالب شاكين عيب محمد لآلهتهم، وآلهة آبائه وآبائهم، وتسفيهه لأحلامهم، وتفريقه لأسرهم وطالبوه بأن يكفه عنهم، فلا يدعو منهم أحدا للدخول فى دينه، فيكفوا أذاهم عنه؛ وإن لم تكن عند أبى طالب القدرة على رده وإيقافه، فليسلمه لهم وهم سيرغمونه على الكف عما هو عليه.

رد أبو طالب عليهم بالحسنى، وردهم ردا جميلا، وخرجوا من عنده وهم واثقون من أن أبا طالب لن يتخلى عن نصرة ابن أخيه إذا ما جد الجد، وعزموا على ألاّ يعودوا إلى الإلحاح واللجاجة حتى لا يغضبوا أبا طالب فينقلب عليهم، وينفرط عقدهم، أو يستثيروه فيدخل فى دين ابن أخيه كبرا ومعاندة لهم!.

وحين حادثه عمه فيما احتج به قومه، قال له النبى ﷺ:

– يا عم هل أسمعك ما قاله ربى فيهم؟..

وقرأ عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ

ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ
عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ
يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ
فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ
وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الحج - الآيات ١ : ١٤].

٣

وازداد عدد الداخلين في دين الله، من أهل الذمة والعبيد، بلال، وعمار بن ياسر وغيرهما، وكيف لا يفرون إلى رحمة الله التي جاء بها نبيه ﷺ، لينصفهم من جبروت المجتمع الذي ورثهم وورثهم وأبناءهم للأقوياء، فأهدروا آدميتهم، وذلك من خلال إعلان المساواة بينهم وبين السادة، ورفض العبودية، في قول رب العالمين: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الحجرات - الآية ١٠].

ولكن دخول المستضعفين ممن ليست لهم جذور بين بطون مكة تدفع عنهم الأذى، وتعطيهم الحماية والأمان، وتمنعهم من قريش؛ أعطى فرصة لكبراء قريش، كي ينفثوا فيهم عن كراهيتهم الشديدة لمن دخل الإسلام من السادة؛ فراحوا يذيقونهم العذاب، ويبطشون بهم، والنبي يألم لهم أكثر مما يألمون، ويطالبهم بالصبر كلما شكوا له حالهم.

ثم راح الجمع من قريش يطاردون المسلمين بالطعن والسب في دينهم، ويشوّشون عليهم، بالتصفيق والصفير في صلاتهم بالكعبة.

ولم يقف عدوان المشركين عند هذا الحد، فلقد ازدادوا شراسة، ورغبة في إحداث المزيد من الأذى للمسلمين، فتحولوا إلى أهلهم؛ فسلبوا ممن دخل الإسلام الأموال، وانتهبوا التجارة، وفرقوا بين الزوج وزوجه، وبين الأب وابنه، بل لقد طردت الآباء أبناءهم من الذين آمنوا من رعايتهم، وهم بعد في سن الصبا والحاجة للعون.

واشتدوا في إيذائهم للنبي، فها هو ذا عقبة بن معيط يحيط بثوبه عنق النبي ﷺ، ويحاول أن يخنقه بينما كان يصلي في الحجر بالكعبة، ويراه أبو بكر رضي الله عنه فيهرول إليه، يدفعه عن النبي بكل ما فيه من عزم وقوة، قائلا في استنكار:

- أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم.

ثـم هـا هو ذا يكرر الإيذاء، ويقذف بأمعاء جمل مذبوح على ظهر النبى وهو سـاجد لله، فلا يرفع النبى رأسه من الصلاة، وتأتى ابنته فاطمة ترفع الوسخ عن ظهره، وهى تبكى وتدعو ربها أن يقتص من الفاعل، وما كان عقبة ليجرؤ على ذلك، لو لم يجد من عم النبى عبد العزى تشجيعا ومؤازرة.

وهاكـم النضـر بن الحارث، بعـد عودته من بلاد فارس وقد سمع منهم أسـاطيرهم التى يسـمرون بها، يدعى أن ما يقول محمد ﷺ ما هو إلا أسـاطير الأولين، ويذهب إلى مجلس النبى ﷺ، ويروح يقاطعه حتى يسكته، ثم يقص ما سمع على من يتحدث إليهم نبى الله، ثم يسألهم بعد أن ينتهى من هرائه، قائلا:

– بالله آينا أحسن قصصا أنا أم محمد؟.

وها هو ذا أبو جهل عمرو بن هشـام يسـتنفر المشركين، ويطلب منهم الحماية لأنه قد قـر قراره على قتل محمد ﷺ، فيقرونه على مـا انتوى، ويباركون قوله، ويعطونه العهد بالأمان، ويجترئ وينتظر بصخـرة كبيرة، رفعها بين يديه عاليا ليشـج بها رأس النبى وهو سـاجد فيقتله؛ وحين يقبل النبى ويسـتغرق فى صلاته، يتقدم أبو جهل بالحجر ليهوى به على رأس النبى، وهو بين يدى الله، ولكن الحجر يلتصق بيديه، فلا يستطيع فعل شىء، بعد أن أصبح الحجر قيدا له، وتحولت أداة القتل من المقتول إلى القاتل تروعه.

أسرع أبو جهل مبتعدا عن النبى ﷺ، وهو يرتعد من شدة الهول الذى أنزله الله به، وأخذ يصرخ فى رفاقه وقد ألم به كرب عظيم، ليخلصوه مما هو فيه من بلاء، وهم مجتمعون حوله لا يسـتطيعون لـه نفعـا، وأصبحت كل أمانى أبى جهل أن ينجو بنفسـه مما هو فيه، وغـادرت فكرة الاعتداء على النبى قلبه؛ هنا فقط سقط الحجر من بين يديه، وسقط أبو جهل فى التراب، ومشاعر الهزيمة والعجز والهوان تهد كيانه هدا.

ويرى محمد ما يحاك له.

وهو صابر.

فلـم يجأر بالنداء ليسـتفزز أهله من بنى عبـد المطلب، وما كانوا ليخذلوه فالأمـر هنا نصرة لمن هو منهـم، وليسـت نصـرة لدين الله، وما كان هو يحب ذلك، بل إنه ليخفـى عنهم كل ذلك التطاول، كما أنه لم يلعن المسـيئين عند ربه، ولم يدع عليهم كما فعل غيره ممن سـبقوه، من رسل وأنبياء، مع العصاة من أقوامهم.

بل هو يعفو ويمارس الصبر، فهكذا علمه ربه: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة الشورى – الآية ٤٣].

هو أيضا يريد أن يكون من أولى العزم.

٤

على رغم أفعال مشـركى قريش، ونفورهم الشديد من اتباع دين محمد، فإنهم كانوا يجتمعون خارج

بيت النبى إذا ما أسدل الليل أستاره، ليستمعوا إلى قراءة النبى للقرآن، بل هم لا يخفون افتتانهم ببلاغة القرآن، ولكنهم لا يجرءون على أن يهمسوا بما يحدثه فى نفوسهم من أثر، يصل إلى الحد الذى يجعلهم ينصتون، فما يدرون بقدوم القادم عليهم، فهم فى رهبة عظيمة مما يتناهى إلى أسماعهم من ترتيل، ثم حين ينتهى النبى من ترتيله لكلام الله، ينتبهون لما فعلوا، ويروحون يتلاومون على إنصاتهم، ويتعاهدون على عدم العودة إلى التنصت والاستماع، ولكنهم لا يصدقون فيما تعاهدوا عليه، ويعودون مرارا إلى التنصت تحت دعاوى كثيرة؛ وإن ظلت قلوبهم فى حسرة يتقولون بأمانيهم: لو أن هذا القرآن أنزل على رجل عظيم من مكة أو من الطائف، بدلا من إنزاله على محمد الذى شب يتيما فقيرا لا يملك المال ولا السلطان، إذن لصدقناه واتبعناه؟!.

أو يتمنون لو أن هذا القرآن نزل به ملك، أو لو أن الله أعطى محمدا ﷺ من المعجزات الحسية كتلك التى يتحدث القسس عن قيام نبى الله عيسى بها، من إنزال مائدة من السماء، أو شفاء الأبرص والأعمى بإذن الله.

ولما تحدثوا إلى النبى بهذا قال لهم:

– ألا يكفيكم شرفا أن الله قد خصكم بخيرات كثيرة، فجعل رسوله إلى الناس كافة من بينكم، وأن الله تعالى هو من اختصنى مبلغا لرسالته: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة يونس – الآية ١٦].

كما أن الله قد أورثكم الكعبة تحظى باحترام العرب، لا يكفون على مدار الأيام عن زيارتها والحج إليها، مما أكسبكم بينهم موقع الاحترام والمهابة، وجعل لكم البيت آمنا يرفل فى عناية الله وحفظه، فى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة العنكبوت – ٦٧: ٦٨].

كما جعل لكم فى تجارتكم بين اليمن والشام رزقا رغدا: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة قريش – الآيات ١: ٤].

وأمام هذا الفضل جميعه، ألم يأن لكم أن تعبدوا رب هذا البيت، الذى أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف؟.

ثم مالكم تعجبون وتدهشون، وترفض عقولكم تصديق ما يحدث حولكم، وما اختص به الله عبده محمدا ﷺ، وتتهمونه بما ليس فيه: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة يونس – الآية ٢].

فما بالكم يا قومى لا تبصرون، ولا تعقلون؟!.

..وبعد أن قال لهم نبى الله ﷺ ما ألهمه به ربه من قول؛ قام المجادلون من المشركين من مجلسه وهم أكثر عجبا، فلم يفقهوا شيئا مما قيل لهم، ودهش نبى الله ﷺ غاية الدهشة من حالهم، ونزل جبريل عليه السلام لجلاء الحقيقة، فقال له الله علام الغيوب مبينا: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة محمد – الآية ١٦].

وعلى رغم هذا، لم يتوقف دخول من يختص الله بالهداية من الناس، فى دين الله، حتى امتلأت بهم دار خديجة على رحابتها، فازداد تجسس جيران نبى الله ﷺ عليه، وكثر تطاولهم على ضيوفه بالسفيه من القول والفعل، ولكن ما السبيل غير الصبر وانتظار نصر الله؟.

٥

بعد مرور ما يزيد على العام من بدء دخول العشرات فى دين الله، مرت جماعة من المشركين بموضع صلاة المسلمين فى الشعب، حيث كانوا يستخفون عند صلاة الغسق، فسبوا المصلين وسبوا دينهم، وثارت ثائرة المسلمين غيرة على الله ورسوله، وتشابك الجمعان، وانتصر المسلمون، وشج سعد بن أبى وقاص رأس واحد من المشركين، وتصايحت قريش بأنها لن تترك مسلما يقرأ القرآن، أو يصلى إلا وستنال منه.

أثار هذا الحادث قلق النبى ﷺ.. وبعد إعمال الفكر وجد أن عليه أن ينأى بهم عن هذه المضايقات، والسبيل الوحيد هو البعد عن مجالس قريش، والبحث عن مكان آخر غير دار خديجة رضى الله عنها، وجاءه الخلاص سريعا حين عرض الأرقم بن أبى الأرقم داره لكى يقيم بها النبى وكافة المسلمين، وكان عددهم قد قرب من الثلاثين أو يزيد، فاستجاب النبى للدعوة، فلقد كانت الدار كبيرة، كما كانت بعيدة عن مسامع قريش، فهى تكاد تكون وحدها التى بنيت عند جبل الصفا.

فى هذه الدار كان الملتقى الأول لكل الذين آمنوا مجتمعين، يدارسهم النبى فيحمل إلى صحابته ما علمه ربه، ويتلو عليهم ما أوحى ويوحى إليه من القرآن، ويرتله ترتيلا ترتيلا، ليحفظوه، ويعايشوه.

وكان جبريل دائم الحضور يدارس النبى، ويفسر له ما استعصى عليه فهمه من كلام الله، ويشير عليه بما يفصح به لأصحابه من درجات العلم الذى يعلمه له ربه، فهناك من العلم أسرار مهولات لا تحتملها ألبابهم، ولا تحتملها أزمانهم، فما تعلم النبى هو على قدر النبى.

ولقد كانت مدرسة دار الأرقم بن أبى الأرقم نواة لبعث أمة من الخلق تختلف عمن سبقها من أمم، كان محمد ﷺ هو قدوتهم، يتعلمون من أفعاله وأقواله، وكان لب العقيدة ومدخلها: شهادة أن لا إله إلا الله، قولا وعملا، فالله واحد أحد فرد صمد، لا يشاركه إله فى الملك وليس له امرأة ولا ولد؛ وأن أمر الحياة وما زينها به خالقها: من مال وبنين، ثم موت، وبعث، وحساب، جميعه بيد الله.

وكان القرآن دستورهم بما حمله لهم من رحمة، وما فتح عيونهم عليه من علم، فجعل لحياتهم طعما ومعنى: فلقد علموا أن حياتهم ليست عبثا، وأن بعد الحياة بعثا ونشورا، وأن الأمر ليس كما كانوا يعتقدون: إن هى إلا حياتنا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين؛ وأن الحياة ليست هى نهاية الرحلة بانتهائها ينقضى كل شىء، بل هى دار الاختبار، ثم يردون إلى الله خالقهم، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة يونس – الآيات ٣: ٤].

إذن عليهم أن يحسنوا سلوكهم، وأن يتقنوا عملهم، فلا سبيل للإنسان للنجاة إلا بعمله، فمنه يكون الجزاء: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة النجم – الآيات ٣٨: ٤٣].

وأنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الحجرات – الآية ١٣].

وأنه ليست هناك عبودية فى الإسلام، فالناس أمام الله سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد، وما أروع عدلك يا رب حين تقول: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة المائدة ٤٥].

فالكل من منبع واحد، ولأصل واحد، هو آدم عليه السلام، كما جاء فى سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ١].

وأن فى هذه الحياة الدنيا ما هو حلال وما هو حرام، فكما أحل الله لأدم أن يأكل من طيبات الجنة، حرم عليه وحواء أن يقتربا من الشجرة التى عرفها لهما، أو يستمع إلى وسوسة الشيطان فيضل ويشقى؛ فالإنسان قد حرم عليه أن يشرك بالله أو يسرق أو يزنى أو يقتل أولاده خشية إملاق، فرزقه ورزقهم على الله، ولا يقتل نفسا حرم الله قتلها إلا بالحق فمن قتل نفسا بغير نفس أو فساد

فـي الأرض فيحاسـبه الله وكأنه قتل الناس جميعا، ولا يأتى ببهتـان يفتريه من بين يديه وأرجله، أو يعصى فى معروف.

وأن حقيقـة الدنيـا إلى زوال، وأن الآخرة خـير وأبقى ففيها الحياة الطيبـة للمؤمنين: فلا نصب، ولا متاعب جسد، ولا مشقة.

وأن الدنيا مهما عاش الإنسـان من أيامها وسـنواتها، فهى قصيرة مهما طالت بالنسبة للآخرة، ففى الآخرة اليوم بألف سـنة مما نعد فى دنيانا، والمسـلمون هم السابقون الذين وعدهم رب العالمين بجنات النعيـم: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة الواقعة – الآية ٢٦].

وأن الإنسـان ما هو والحياة، إلا كزارع يسـتعد ليوم جنى الثمار، فإن أحسـن الزرع فجنيه جنات عرضها السـماوات والأرض أعدت للمتقين، فيها من الخـيرات والمتع مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والمتعة فيها متصلة بلا مشقة ولا معاناة؛ أما إذا زرع ولم يحسن زرعا فهو إلى جهنم يصلى نارا وعذابا وخزيا، وبئس المصير.

وأمام هذه المعرفة الجديدة: ألا تهون الدنيا عليهم، ويقل شأنها، ويهون أمرها؟.

وقد عرفـوا أن الشـق الثانى من الشـهـادة، وهو شـهادة أن محمدا نبى الله ورسوله: يعنى الاقتداء والتشبه بخلق وأفعال رسول الله ﷺ.

كان النبـى ﷺ أكثرهـم حياء وتواضعا، يجلس وسـطهم فلا يسـتطيع من لا يعرفـه أن يميزه من بينهـم، يفعـل مـا يفعلون، وإذا قـام ثم عاد، يجلس حيـث انتهى به المجلـس، وكان يقول لهم: لا تميزونى بينكم.

ويؤكد تصرفه، فى قوله ﷺ:

– أجلـس جلسـة العبـد، وآكل أكلة العبـد، وأحب أن أكون عبدا رسـولا، ولا أحـب أن أكون ملكا رسولا.

كان نبى الله ﷺ ينزل إلى الأسـواق سـعيا إلى الارتزاق من عمل يده، فيبيع ويبتاع، حتى لقد عير الكفـار المسـلمين بأن الرسـول يمشى فى الأسواق لا يميزه شىء، ولا يتميز فى شىء، وهو بشر مثلهم: يأكل مما يأكلون، ويشرب مما يشربون، ولئن اتبعتم بشرا مثلكم فإنكم خاسرون!!.

ومـا كان كفـار مكة، وأهل الكبر والصلف يدرون أنهم بتعداد كل هذه الصفات عن النبى ﷺ، إنما يزكونه عند أصحابه.

لقد تسلل حب نبى الله ﷺ إلى نفوس من معه جارفا، فسيطر على كل ذرة من ذراتها، وجعلهم يذوبون فيه ذوبانا كاملا، ثم ارتقى الحب فأصبحوا يؤثرونه على أنفسهم؛ وأصبح الله ورسوله أحب إلى المسلم الأول من الدنيا وما فيها، ومن فيها: فتآلفت القلوب، وانزاحت الدنايا، وتوحد الكل فى قولة: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

كان هذا التآلف يثير عجب المشركين واستنكارهم، فلا مجلس محمد فى فخامة وترف مجالسهم، ولا المسلمين يلهون ويستمتعون بسويعات اجتماعهم مثلما هم يفعلون، حيث الخمر والطعام والغيد الحسان؟.

وكيف لكفار مكة أن يعرفوا، وهم لم يرتفعوا عن حضيض الدنايا المادية، إلى سمو الروحانيات، ليذوقوا شهد الإيمان بالله ورسوله؟!.

بل لقد وصل بهم حال الضياع أن قالوا:

– اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم.

وذلك بدلا من أن يقولوا قول العقلاء:

– اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا إلى سواء السبيل.

وجاءهم رد الرحمن الرحيم، فى سورة الأنفال، بأن وجود النبى والمستغفرين لذنبهم من المسلمين يمنع عنهم العذاب لكرامة الحبيب محمد ﷺ عند ربه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة الأنفال – الآية ٣٣].

٦

وحين اشتد الأذى بصحابة النبى ﷺ، كان جبريل عليه السلام يحمل إليه قصص الأنبياء ممن سبقوه، وما لاقوه من الكفار والمشركين، وما لاقاه المسلمون الأول من عنت وتعذيب فاق ما يتعرض له صحابته بكثير، حتى إن المسلم من أولئك كان يشق إلى نصفين حتى يكفر بالله، فما كان يستجيب، مفضلا الشهادة والجنة التى وعد بها المتقون، على الدنيا وزخرفها، وهى أمور لم يعرف بها قومه.

وكانت تلك القصص عظة وعبرة، وتسرية عن النبى ﷺ، لأنه لم يكن يملك دفع الأذى عن أصحابه، وتخفيفا من آلام نفسه الرحيمة التى كانت تتبدد شتاتا حزنا ورأفة بالمعذبين من ضعفاء قريش، كلما رأى أو سمع عن عذابهم الذى وصل إلى حد جلدهم بالسياط، وكيهم بالنار، وطرحهم ببطحاء مكة وقت الظهيرة وهم عراة لكى تفتت الشمس القاسية عظامهم، وتكوى جلودهم، وتوهن عزيمتهم؛ وكان أول من شرف بالشهادة فى الإسلام من ضحايا قريش: سمية، زوجة ياسر، وأم عمار وزيد.

ولقد ذهب إلى رسول الله، وفد من المعذبين قائلين:

– يا رسول الله ألا تستنصر لنا؟.

قال رسول الله باثا فيهم روح الصبر، ومبشرا بالأبقى:

– كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له فى الأرض، فيجاء بمنشار، فيوضع على رأسه فيشق ما دون لحمه وعظمه، وما يصده ذلك عن دينه؛ والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله تعالى، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون.

ثم استطرد فتلا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [سورة البقرة – الآية ٢١٤].

وأمام هذه المحنة، أخذ أبو بكر يشترى من يستطيع شراءه من المعذبين، رحمة بهم، ثم يعتقهم لوجه الله أحرارا، وحين احتج أبوه قائلا:

– يا بنى اشتر الأقوياء فيمنعوك من ظلم قريش، بدلا من أن تشترى من لا حول لهم ولا قوة، فلا يستطيعون أن يدفعوا عنك أذى، وإنها لتجارة بائرة.

قال أبو بكر:

– بل هى تجارة مع الله، ومن يتاجر مع الله فتجارته لا تبور.

ولما ازداد ظلم قريش، وأصبح اضطهادهم للمسلمين لا يطاق، جاء جبريل إلى النبى ﷺ، فبصره، وأرشده، واستجاب النبى وأبلغ أصحابه بما أوحى إليه، قائلا:

– لو خرجتم إلى أرض الحبشة، يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق.

وكانت أول هجرة فى سبيل الله لصحابة رسول الله ﷺ، ونفذها عشرة أو يزيد من المسلمين، منهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله رضى الله عنها.

كان فراقهم شاقا على نفس النبى، وإن كتم الأمر وأخفى حزنه وألمه عن الصحابة حتى لا يزداد ألمهم لألمه، فتكفيهم مرارة فراق من كانوا لهم إخوانا.

ولقد أعقبت الفئة الأولى من المهاجرين فئة ثانية، تسللت مغادرة من مكة فى تخف وحيطة، حتى لا يشعر بهم المشركون، فكانوا ينفلتون أثناء الليل فرادى أو مثنى وثلاثًا، ثم يتجمعون عند نقطة اتفقوا عليها على شاطئ البحر، فيستأجرون مركبا، ويرحلون آمنين إلى أرض الحبشة، وقلوبهم تنزف ألما لفراق الحبيب محمد، ولفراق الأهل والأرض؛ وإن كان الأمل لا ينقطع فى عودة منتصرة إلى أرض المولد، وإن داخلتهم سعادة لا تخفى لأن هجرتهم طاعة لأمر الله تعالى، وانتظار لأجره، فلقد قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة النحل – الآية ٤١: ٤٢].

٧

كانت هجرة المسلمين مثار خوف كبراء الكفار، وأصحاب الرأى فيهم، لقد تطيروا منها، لأنها تشى بأن دين محمد يغادرهم لحين، ثم يفد عليهم من خارج مكة فيكتسحهم ويثأر منهم ويدمر مناعتهم وعزتهم، ولقد حاولوا فى كل هجرة أن يلحقوا بمن يهرب من المسلمين، ولكنهم لم يدركوا أحدا منهم.

ولم تهدأ وساوس قريش، ولم يكف أهل الرأى فيها عن التفكير والكيد لمحمد ﷺ، ولقد شاركهم إبليس فى تآمرهم، ثم قرروا أن يعرضوا على النبى ما ظنوا أنه سيغريه، ويدير رأسه عن ذاك الطريق الذى يهدد نفوذهم، ويبدد هيبتهم بين القبائل، ويكفه عنهم، ولقد أنابوا عنهم عتبة بن ربيعة، وهو من حكمائهم، ليقوم إلى محمد فيكلمه، ويعرض عليه ما ارتأوا.

جلس عتبة بين يدى النبى يداهنه، قائلا:

– يا ابن آخى، إنك منا حيث علمت من الحسب والشرف والفضل، والمكنة فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم، وعبت آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها.

قال له النبى ﷺ:

– قل يا أبا الوليد.

قال عتبة:

– يا ابن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه.. فإن الجنى يكون أحيانا شديدا على الرجل حتى يداوى منه.

قال محمد الصادق ﷺ:

– أفرغت يا أبا الوليد؟.

قال:

– نعم.

قال الأمين ﷺ:

– فاسمع منى.

قال عتبة:

– افعل.

قرأ رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ

إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ۞ [سورة فصلت – الآيات ١ : ١٣].

وهنا انتفض عتبة انتفاضة هائلة، وقفز يقفل فم النبى بيد مرتعدة من شدة الهول الذى أصبح عليه مما سمع من نذير ووعيد، وقال للنبى فى رجاء:

– كفى يا ابن أخى ما أسمعتنى.

لكن النبى ﷺ استمر يرتل عليه السورة حتى تلا نهايتها من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ۞ [سورة فصلت – الآيات ٥٢: ٥٤].

ولما انتهى نبى الله ﷺ، أردف قائلا:

– قد سمعت ما سمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك.

قام عتبة وهو راغب عن القيام، وقد غشيته من بعد الرعدة سكينة، حتى إن أصحابه حين رأوا ما هو عليه وهو آت من بعيد، قالوا:

– والله لقد جاء أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب عليه، وإنا لنخاف أن يكون قد فتنه محمد.

وحين استقر بينهم، سألوه عما وراءه، قال:

– إنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله من قبل، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة؛ يا معشر قريش: أطيعونى واسمعوا قولى، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه، فو الله ليكون لقوله الذى سمعته منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به.

قالوا فى خبث، وقد أعدوا نبال الردة، وأطلقوا سهامهم:

– سحرك والله يا أبا الوليد بكلامه، وأعجبك طعامه، فإن كنت فى حاجة إلى مال جمعنا لك من بيننا ما يغنيك عن طعام محمد.

ونجحت الحيلة على الرجل لأنفته وعزة نفسه: وأصابته السهام، وانتفضت حمية الجاهلية وعنجهية الجهل، فأعلن عتبة أنه لن يكلم محمدا من بعدها أبدا.

وعلى رغم تراجع عتبة عن قولة الحق التى قالها فى محمد، فإنه قد أثار حفيظة بطون قريش، من أن يكون لبنى عبد المطلب شرف النبوة زيادة على ما تميزوا به عنهم من رفادة الحجيج: وحفر زمزم؛ إذن فعليهم أن يمنعوا تمام هذا الأمر بكل غال ونفيس.

واجتمع قادة البطون، وتوجهوا إلى أبى طالب، وقالوا له:

– يا أبا طالب لقد عرضنا على محمد أن نهبه من أموالنا حتى يكون أكثرنا مالا، ونوله أمرنا فيكون أعزنا سلطانا، وتكون له الإمرة فينا، ولكنه لم يقبله منا، فاسع إليه، واعرض عليه الأمر، فلعله يقبل منك ما لم يقبله منا، فأنت أقرب إليه، وأحب له من قريش مجتمعة.

بعث أبو طالب فى طلب ابن أخيه، وهو مستبشر بما عرض أهله، وقص عليه ما حدث، ثم تساءل:

– فانظر ماذا ترى؟.

ونظر النبى طويلا فى وجه عمه، وأدركت عينه البصيرة مدى إقبال عمه وقبوله لما عرض عليه، فدمعت عيناه: فلقد كان يظن أن عمه قيد أنملة أو أقل، ليدخل فى دين الله، ولم يكن أمام النبى إلا أن يجيب، فقال بعد صمت طال أم قصر:

– والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يتمه الله أو أهلك دونه.

أطرق الشيخ فى تدبر، ثم رفع رأسه، والتقطت عيناه رقرقة الدمع فى عينى الحبيب فتوجع القلب وقال فى عزم:

– أنت وما تريد يا ابن أخى فامض فيما تحب، وما كنت متخليا عنك أبدا.

٨

سنوات ثلاث والدعوة تتم دون الجهر بها، فالنبى ورفاقه يدعون إلى الإسلام من يثقون به من أهليهم، وكانت استجابة من دخلوا فى دين الله أقل بقليل ممن استكبروا ولجوا فى عتو ونفور.

وكان النبى يعرض نفسه على الوفود التى تجىء إلى مكة للحج أو للتجارة، وأهلها ما بين متردد أو رافض، وبينما هو يتحدث إلى أحد الكبراء أملا فى دخوله لدين الله إذا بعمرو بن قيس بن

الأصم، وهو ابن خال زوجه خديجة، وهو أعمى قد حسن إسلامه، يسمع صوت النبى، فيقبل عليه مقاطعا يقول:

– يا رسول الله أرشدنى.

فأعرض عنه النبى، واستمر فى حديثه لمن يحدثه، قائلا:

– أترى فيما أقول بأسا.

فيقول الرجل فى غير اهتمام:

– لا.

استغفر النبى ربه، وأرسل فى طلب عمرو، وقربه إليه معتذرا عمَّا حدث، وسأله عما كان يريد أن يسأل عنه، وأجابه على ما أراد.

ونزل جبريل عليه السلام على نبى الله ﷺ، حاملا عتاب ربه لانصرافه عن عمرو: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [سورة عبس – الآيات ١: ١٠].

ومنذ ذلك اليوم لم ينصرف رسول الله ﷺ عن سائل يسأله حتى ينصرف السائل عنه، وهكذا علمه ربه.

ثم جاءه جبريل عليه السلام بأمر ربه مبلغا بآيات: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧﴾ [سورة الشعراء – الآيات ٢١٤: ٢١٧].

ويسارع النبى بصنع طعام يحمله مع على إلى دار عمه أبى طالب، ثم دعا أعمامه إليه، فإذا بهم يأتون ملبين ومعهم أبناؤهم!!.

قال لهم رسول الله ﷺ، يدعوهم إلى الطعام:

– خذوا باسم الله.

ولما لحظوا قلة الطعام أوغلوا فيه حتى لا يكفيهم فيحرجوا رسول الله، ويظهروا فقره، ويحطوا من قدره، فتتقول عنه مكة بأنه أضعف من أن يشبع ضيفه!!.

ولكن ما كان الله مخزيا نبيه، فحلت البركة، فأكلوا حتى أصابتهم التخمة من كثرة ما طعموا، وتبقى طعام كثير، فالطعام لا يكاد ينقص؛ وإذا بعمه عبد العزى يقول لمن حوله والغيرة تنهش قلبه:

– والله لقد سحركم صاحبكم.

وضاق صدر رسول الله مما قال الكاذب، وأمسك عن الكلام، وانفض القوم.

يعلمون ﴿٩٦﴾ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴿٩٧﴾ فسبح بحمد ربك وكن من السٰجدين ﴿٩٨﴾
وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [سورة الحجر – الآيات ٩٤: ٩٩].

وأعاد النبى المحاولة فأكثر من الطعام، ثم أرسل عليا إلى أعمامه يدعوهم، ولما فرغوا من الأكل بادر عبد العزى فقال:

– يــا محمــد هؤلاء عمومتك، تكلم بما تريد واترك الصبأة، فإنى لم أر أحدا قط قد جاء قومه بما هو شر مما جئتنا به.

وأشار جبريل إلى النبى ﷺ بأن لا يعبأ بعدو الله و يصبر، فقال النبى:

– يا بنى عبد المطلب إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررت النــاس جميعــا ما غررتكم، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرســول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تســتيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالســوء ســوءا، وإنها لجنة أبدا، أو لنار أبدا، وإنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرنى الله تعالى أن أدعوكم إليه، فآيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيتى ووارثى؟.

فأحجم الموجودون عن إجابته إلا «على بن أبى طالب». فلقد أســرع يلبى دعــوة رســول الله ﷺ، وهو أصغر الموجودين سنا وجسما:

– أنا يا نبى الله أكون وزيرك عليه.

وتنتفــخ أوداج أبــى طالب بالفخار، وهو يرى ابنه «عليــا» يكبر الرجــال فيتقدمهم، ويتســاءل بينه وبين نفســه:

– أى دين هذا الدين الذى جعل الصبى رجلا يطاول أعناق العماليق فيفوقهم؟!.

وكرر رسول الله ﷺ سؤاله مرة ثانية وثالثة:

– أيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيتى ووارثــى؟.

و «على» ينهض وحده فى كل مرة ليجيبه ملبيا:

– لبيك يا نبى الله، أنا أكون وزيرك عليه.

وهنا ضرب النبى ﷺ بيده على يد «على»، وقال:

– إن هذا أخى ووصيتى وخليفتى فيكم.

وانتفض عبد العزى غاضبا يقول:

– يا بنى عبد المطلب، هــذه والله السـوءة، خــذوا على يده، وامنعـوه عن هذا الأمر بحبس أو بغيره، قبل أن يأخــذ على يده غيركم.

obeikandi.com

ولم تستطع أخته صفية بنت عبد المطلب أن تسكت على غلظته، فقالت له:

– أى أخى أيحسن بك خذلان ابن أخيك؟.. فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من أصل عبد المطلب نبى، وإنه لهو.

لوح عبد العزى بيديه فى وجهها وصرخ فيها:

– هذا والله الباطل، وكلام النساء فى الحجال.

قال أبو طالب فى عزم:

– والله لندافع عنه ما بقينا.

وتفرق الأهل، ولم يستجب منهم أحد إلا من سبق وهما: عمته صفية وعلى؛ ومحمد ﷺ صابر فى ظاهره، باك فى أعماقه أسفا وحزنا عليهم، فيهون عليه ربه، ويتنزل الإفصاح العظيم: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة الشعراء – ٦ : ١].

وواصل رسول الله الجهر بالدعوة، وحين مر بجماعة من قريش كانت مجتمعة على جبل الصفا، وقف يخطبهم قائلا:

– أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم تكذبوننى؟

قالوا مجمعين:

– والله ما جربنا عليك كذبا.

قال نبى الله ﷺ:

– يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، فإننى لا أغنى عنكم من الله شيئا، إنى لكم نذير مبين بين يدى عذاب شديد، إن مثلى معكم مثل رجل رأى العدو، فانطلق يريد أهله خشية أن يسبق إليهم، فجعل يهتف: يا صباحاه، يا صباحاه، أتيتكم، أنا النذير العريان، إن الله قد بعثنى إلى الخلق كافة، وإليكم خاصة، فقال: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [سورة الشعراء – الآية ٢١٤]. وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين فى الميزان: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله؛ فمن يجيبنى إلى هذا الأمر، ويؤازرنى على القيام به؟.

وقبل أن يلفظ أحد بكلمة، سارع عبد العزى يقول مؤنبا النبى ﷺ، مسخفا قوله:

– تبا لك، ألهذا جمعتنا.

وانفض القوم، ولم يجبه أحد.

وأنزل الله من القول ما زلزل كيان عبد العزى، تأديبا له على تطاوله: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ

﴿ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥ ﴾ [سورة المسد ، الآيات ١ : ٥].

وذاع خبر السورة فى قريش وسكب المشركون الزيت على النار، حتى تكون الفتنة من داخل البطن الواحد، خاصة وأبو طالب لا يريد أن يحيد عن دفاعه عن ابن أخيه؛ ويتكفأون مسرعين إلى عبد العزى يسمعونه ما أنزل فيه.

ويستشيط أبو لهب غضبا، فيصحب ولديه وكانا قد تزوا من ابنتين من بنات الرسول فيردان زواجهما ويطلقانهما، بل ويتطاولان عليه فيسمعانه ما لا يحب أن يسمع، ويسيئان إليه فيتفل أحدهم على وجهه الشريف!!.

وتمسك أم جميل زوج أبى لهب بحجر، وتخرج من دارها صائحة مولولة مقسمة أنها ضاربة فم النبى ﷺ، بذاك الحجر جزاء ما قال.

فى الكعبة جلس النبى يصلى، وجعله الله فى ناحية عين أم جميل العمياء، فلقد كانت عوراء، فلم تر محمدا ﷺ على رغم تدقيقها فى وجوه من حولها، فأخذت تسب وتشتم «مذمما»، ثم انصرفت تأكلها نار غضبها.

وحين صادف أبو جهل رسول الله يطوف بالبيت، لم يستطع أن يخفى غضبته، وسبه سبا مقذعا، فلقد كان يتوقع أن السماء لا بد وأنها قائلة كلمتها فيه هو أيضا، كما قالتها فى أبى لهب فيلحقه العار والهوان، كما لحق بصديقه، والرسول ﷺ صابر لا يرد عليه، حتى انتهى من طوافه، وتركه وانصرف.

ويسمع عمه حمزة بن عبد المطلب وهو عائد من القنص، امرأتين تتشدقان بما فعل الحكم بن هشام بمحمد، فلم يحتمل حمزة سماع المزيد، وأسرع إلى حيث كان الحكم يجلس مع أصحابه من المشركين، وهوى على رأسه بقوس الصيد فشجه، وقال له متحديا:

– كيف تسب محمدا وأنا على دينه؟.

وما كان حمزة على دين محمد،ولكنه التحدى، وهى حمية الجاهلية الأولى، ولقد شاء الله أن تكون غيرة حمزة لابن أخيه سببا فى دخوله فى دين الله.

٩

راح أولياء الشيطان يفكرون ويعملون الفكر فى تآلف لم يعتده أهل مكة، أهل الشقاق والعصبية، والتشرذم، فلقد جمعهم الحقد كل التجمع، خاصة وقد اكتشفوا أن التخويف والتعذيب لم ينجحا فى إثناء الناس عن الدخول فى دين الله، بل هم يتكاثرون، فها هو ذا حمزة قد أعلن إسلامه، ثم ها هو ذا أبو ذر الغفارى يحمل الدين الجديد إلى خارج مكة، وبهذا لم يعد الأمر داخل مكة وحدها، بل صار خارجها أيضا، وليس بمستبعد أن يفد صحابة محمد من الخارج، بعد أن فروا إلى النجاشى ملك الحبشة، ليقاتلوهم فى ديارهم فيخرجوهم، أو يضيعوا أمرهم بين القبائل؛ ولم لا وصحابته يعيشون فى

سلام، وينشرون دينهم، وهم إذا ما ذاع أمرهم، وقويت شوكتهم، هلكت قريش.

إذن لابد من اتباع أسلوب جديد، فليبعثوا بالهدايا إلى ملك الحبشة وإلى البطارقة من أصحاب النفوذ لديه، وليطلبوا منهم أن يسلموهم من نأوا بدينهم عند مليكهم.

تصايح المشركون وقد أدركوا هول الخطر الذى يحيط بهم، وتسابقوا يجمعون الأموال والهدايا التى سيرفعونها إلى النجاشى وبطارقته، وكانوا يعمدون إلى الإعلان عن فعلهم ليغيظوا به المسلمين، ويهزوا ثقتهم، ويوقعوا الرعب فى قلوبهم.

وكان رسول الله ﷺ يسمع، ويألم، ويتوسل إلى رب العالمين أن يحفظ صحابته، وأن يهلك فعل الكافرين؛ ويأتيه جبريل موضحا له معلما مبينا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

[سورة مريم – الآيات ٨٣: ٨٧].

وينزاح القلق سريعا عن نفس نبى الله ﷺ، فلقد علمه ربه أن مكر الله شديد، وأن ما ينتظر صحابته من جزاء فى الآخرة لتهون أمامه كل المشاق، بل إن الحياة نفسها أمام وعد الله لا تساوى جناح بعوضة.

سافر وفد إلى الحبشة بقيادة اثنين من أحكم رجال قريش، وقد حملوا بالهدايا، وكشف لهم إبليس عن أسهل الطرق للوصول إلى قلوب البطارقة، وعملوا بما علمهم، فتزلفوهم وقدموا لهم الهدايا، وأغروهم بالموافقة على تسليم المهاجرين فوافقوهم، ووعدوهم بأن يجعلوا الملك يوافق هو أيضا.

هكذا مكروا، ولكن مكر الله أشد، فلقد جعل النجاشى يطلب الاستماع إلى المسلمين قبل أن يتخذ فيهم رأيا.

اختار المهاجرون أن يكون المتكلم عنهم جعفر بن أبى طالب، أخو على وابن عم رسول الله ﷺ، فلما سأله الملك:

– ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا فى دينى، ولا فى دين أحد من هذه الملل؟.

أجابه جعفر قائلا:

– أيها الملك، كنا قوم جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الرحم، ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف؛ حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله نوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، ووصل الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام؛ فعبدنا الله وحده، واتبعناه على ما جاء به من عند

الله، فحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا؛ فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا عن عبادة الله سبحانه، إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل من الخبائث ما كرهنا؛ فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألاّ نظلم عندك.

قال الملك:

– هل معك مما جاء به نبيكم شىء؟.

فتلا جعفر: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ۝١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ۝١٣ وَبَرّٗا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ۝١٥﴾ [سورة مريم – الآيات ١: ١٥].

فبكى الملك بكاء شديدا حتى ابتلت لحيته، وبكى الأساقفة تأثرا بقول الله، ثم قال الملك للمبعوثين:

– إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة، فانطلقا فو الله لا أسلمهم إليكم، ولا يكون هذا أبدا.

ولم يهدأ الحقد فى نفس عمرو بن العاص، فظل ساهرا الليل بطوله يبحث عن وقيعة يحدثها بينهم وبين النجاشى، إلى أن ألهمه شيطانه إلى حيلة جعلته متيقنا من أن النجاشى سيسلمهم إليه، إن لم يكن سيأمر بقتلهم.

وما إن أشرق النهار، حتى طلب عمرو المثول بين يدى الملك، فلما أذن له قال:

– أيها الملك العظيم، إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا قبيحا، فأرسل واسألهم فيه.

وطلب الملك «جعفرا»، وسأله عن حقيقة ما جاء فى مريم ابنة عمران فواصل جعفر القراءة: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۝١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ

رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة مريم – الآيات ١٦ : ٣٦].

وهاجت البطارقة، وعلا صوتها احتجاجا على القول بأن عيسى ليس ابن الله، ولكن الملك قال لهم:

– والله ما قال مثل ما قيل إلا عيسى بن مريم، وإن غضبتم، فردوا على الرسل هداياهم فلا حاجة لى بها، فو الله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى.

ورد الملك هدايا وفد قريش، وأمر بحفظ جوار المسلمين.

وتحولت شياطين قريش غضبى تبحث عن سبيل جديد لإضعاف موقف محمد، فأرسلوا عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث إلى طيبة، ليسألا عتاة اليهود من الأحبار كيف يكون الكيد لمحمد وصحبه، ويطلبوا منهم الأدلة والبراهين التى تعجزه وتقلل من شأنه، وتشكك فى أمر الدين الجديد، فسألهم الأحبار:

– أهو يعرف القراءة والكتابة؟.

فنفيا قائلين:

– لا نظن أن يكون على دراية بشىء من ذلك كأغلب أهل مكة.

ثم أضافا قائلين:

– ولقد تبعه على دينه أراذلنا والسفلة منا.

فضحكت الأحبار لذلك، ونصحوهم بأن يحاجوه بأمور حددوها لهما، ستعجزه باليقين.

وعاد المبعوثان إلى مكة، ودعت قريش رسول الله للمناظرة، وقد ملئوا كبرا وثقة فى النصر، وسألوه

– وما الروح؟..

فقرأ رسول الله عليهم ما جاءه من عند ربه عن أهل الكهف، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الكهف – الآيات ٩: ١٣].

أما عن الرجل الطواف، فقال رب العالمين: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾[سورة الكهف – الآيات ٨٣: ٩٨].

أما عن الروح، فقال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة الإسراء – الآية ٨٥].

وحين سمع الأحبار بما قال رسول الله ﷺ، شهدوا بأنه الحق، وأحبط الذين كفروا.

١٠

أعلن عمر بن الخطاب إسلامه، بعد أن سمع كلام الله يتلى فى دار أخته، وكانت قد أسلمت سرا

هى وزوجها، وقد أخذه العجب أن تسمع قريش بمثل هذا الذكر الحكيم وتفر منه.

وحين جلس ابن الخطاب، بكل شموخه وقوته وحكمته بين يدى رسول الله ﷺ يزداد استماعا، ويمتلئ خضوعا وخشوعا وخشية لله الواحد، وحين تلا رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [سورة التكوير – الآيات ١ : ٩].

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى هذا الموضع من الآية، إذا بالنشيج المكتوم يعلو، وإذا بابن الخطاب وكأنما قد أصابته الحمى، فلقد أخذته الرعدة، وتهدج صوته، وقال فى رقة بالغة:

والله لقد أريتنيها يا رسول الله، وإنى لأرى ابنتى الآن رأى العين وقد أسقطتها فى الحفرة لأدفنها، ورحت أهيل عليها التراب، فإذا بها تمد يدها الصغيرة، فتنفض التراب عن شعر ذقنى كلما علق به.

وبكى الرسول ﷺ تأثرا، وهو يستغفر ربه من غلظة القلوب، وغفلة الجاهلية، وبكت الصحابة، وراح النبى ﷺ يسأل عمر معاتبا:

– أهانت عليك يا عمر؟.

فيجيبه عمر وقد زاد ألمه وندمه، قائلا:

– والله إنها الجهالة يا رسول الله، فهل ربى غافر لى؟.

قال النبى ﷺ:

– يا عمر.. يقول رب العزة سبحانه وتعالى:

«يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة.».. يا عمر يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٠﴾ [سورة البقرة – الآية ١٦٠]، فاستغفر لذنبك.

قام عمر من بين يدى رسول الله، ولسانه لا يكف عن الاستغفار، وقد أراحه ما علم، وزاده تثبتا وإيمانا، وأصبح كل همه أن يعلن للملأ من مشركى قريش إسلامه.

ذهب أول ما ذهب إلى خاله، أبى جهل عمرو بن هشام، طرق عليه الباب، وحين فتح له، هش فى وجهه وقال له:

– ألا أبشرك ببشارة؟.

قال خاله:

– وما هى؟.

قال ابن الخطاب:

– إنى آمنت بالله ورسوله محمد بن عبد الله، وما أنزل عليه.

صفق أبو جهل الباب فى وجهه، وهو يزأر:

– قبحك الله، وقبح ما بشرتنى به.

لم يكتف ابن الخطاب بما فعل، بل ذهب إلى «جميل بن حبيب» فى مجلسه بجوار الكعبة، وكان ممن عرف عنهم سرعة نقل الحديث، فمال عليه وقال له:

– أعلمت يا جميل أنى قد أسلمت، ودخلت فى دين محمد؟.

انتفض جميل يصرخ فيمن بالجامع:

– يا معشر قريش ألا إن ابن الخطاب قد صبأ.

وكان عمر يقف وراءه فزجره قائلا:

– كذبت، بل إنى قد أسلمت وتبعت دين محمد، وشهدت بأن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

تنافر الموجودون بالجامع، وحملوا على عمر، وقفز عتبة بن ربيعة على ظهره فطرحه عمر أرضا ووضع إصبعه فى عينه فصار يصرخ مستجيرا، فتكالب الناس على "عمر" يضربونه ويضربهم حتى تمكنوا منه فطرحوه أرضا.

وجاء فرج الله بظهور أبى جهل، فقد صعد بأعلى مكان مستكشفا ما يحدث، وأنطقه الله، فصرخ فى الناس معلنا أنه مجير ابن أخته، فانفضوا عن عمر.

وفى الصباح ألح عمر على رسول الله ﷺ إلحاحا شديدا أن يظهر صلاتهم، ويخرج مع المسلمين إلى الجامع ليصلوا فى الكعبة، واستجاب النبى لرجائه، وخرج المسلمون صفوفا يتقدمهم عمر ويحمى مؤخرتهم حمزة، ودخلوا إلى المسجد.

كان المشهد مهيبا، وزادت المفاجأة من وقعه على النفوس، فبدا أكثر هيبة وأشد وطأة، فلم يكن أحد فى مكة كلها، حتى المسلمين: من أظهر منهم إسلامه، ومن أخفاه، يرقى تصوره إلى هذا المشهد الذى خرج فيه المسلمون، وفاجأ به ابن الخطاب الحياة جميعها.. فأصيب الكفار بالفزع، وانتابتهم الفرقة، فلم يتنادوا، ولم يجتمعوا، بل انصرف كل منهم إلى ما هو فيه من شأن، فلم يعترضوا سبيل المسلمين، حتى انتهى المسلمون من صلاتهم وغادروا المسجد، بعد إذ صاروا يتنادون ويتلاومون على ما فرطوا فيه من ترك للمسلمين.

ومنذ ذلك اليوم سمى عمر بن الخطاب: الفاروق، لأنه فرق بين الحق والباطل.

وتناقلت الألسن نصرة المسلمين، وكما تسرى النار فى الهشيم لا تفرق بين أخضر ويابس، ولا بين حق وباطل، أو كذب وصدق، ولما وصل الخبر إلى المهاجرين بالحبشة، صار يقول:

– لقد دخل أهل مكة فى دين الله أفواجا.

وجعلت الفرحة من أمضهم الشوق إلى الوطن يتدافعون عائدين إلى قريتهم: فلم لا يعودون والحال قد أصبح كذلك.. ولم يبقون فى الغربة بعيدا عن الحبيب والأحبة؟!.

كان وقع عودتهم على الكفار كسكب القار على النار، فازدادت كراهيتهم لرسول الله اشتعالا لتلتهم البقية الباقية من العقل والتعقل، ولم يعد أمام أنصار إبليس من سبيل سوى قتل الرسول، فلقد أدركوا بعد أن سلكوا كل السبل: أنه لن يوقف دعوته إلا القتل، واجتمع رأيهم على أنه لا سبيل للخلاص منه إلا بفداء منهم: فى ظاهره التضحية، وباطنه المكر والخداع، وذهبوا إلى أبى طالب ومعهم أملح فتيان قريش قائلين:

– يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد وأجمل فتى فى قريش، فخذه واتخذه ولدا فهو لك، وسلم لنا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعتنا وسفه أحلامنا.. فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

وتألقت بصيرة أبى طالب، فكأنه قد سمع ورأى كل ما تآمروا عليه، فأجابهم متعجبا من غرابة منطقهم:

– والله لبئس ما تساومونني عليه، أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه؛ هذا والله مالا يكون أبدا.

وبمنطق الضلال الذى كانت قريش عليه قالوا:

– واللات لقد أنصفك قومك يا أبا طالب، وجهدنا على التخلص مما تكره، فما نراك تريد أن تقبل منا شيئا.

وانصرفوا من عنده غاضبين..

ولكن رحى القتل لم تنصرف عنهم، ودارت بالحقد تطحن عظام رؤوسهم، قبل أن تشحذ عقولهم، وقر قرارهم بعد جدل طويل شارك فيه إبليس، بأن السبيل للخلاص من محمد سيكون أهون، لو بعدوا عن القيام بقتله بأيديهم، فما رأوا عليه ابا طالب يؤكد أن دم محمد لن يتفرق بينهم، وسوف يطالب به بنو عبد المطلب، إن لم يكن بنو هاشم وأنسبائهم وأنصارهم، وقر رأى المتآمرين على استئجار شخص من خارج قريش ليقوم بعملية القتل، و يدفع المتآمرون دية محمد لأهله من بنى هاشم.

ولما عرضوا الأمر على بنى هاشم أبوا، وآزرهم فى ذلك بنو عبد المطلب بن عبد مناف.

اشتد الغضب بالمتآمرين، وتنادوا وتنافروا، ثم أجمعوا على أن يخرجوا من بينهم الرافضين لقتل محمد، وينبذوهم ويحاصروهم فى شعب أبى طالب.

وحين علم رسول الله ﷺ بما عزمت عليه قريش، أشار على صحابته ممن عادوا إلى مكة من المهجر، أن يلحقوا هم وغيرهم من المسلمين، بإخوانهم الذين بقوا بالحبشة، وأن يفروا بدينهم.

أما محمد ﷺ فبقى بمكة مع قلة قليلة من الصحابة، صابرا محتسبا..

❑❑❑